الإيجاز والأطناب والمساواة

كل ما يجول في الصدر من المعاني، ويخطر ببالك معنًى منها — لا يعدو التعبير عنه طريقًا من طرق ثلاث:

أولًا: إذا جاء التعبير على قدر المعنى، بحيث يكون اللفظ مساويًا لأصل ذلك المعنى، فهذا هو «المساواة»، وهي الأصل الذي يكون أكثر الكلام على صورته، والدستور الذي يُقاس عليه.

ثانيًا: إذا زاد التعبير على قدر المعنى لفائدة، فذاك هو «الإطناب»، فإن لم تكن الزيادة لفائدة فهي حشو أو تطويل.

ثالثًا: إذا نقص التعبير على قدر المعنى الكثير، فذلك هو «الإيجاز».

فكل ما يخطر ببال المتكلم من المعاني فله في التعبير عنه بإحدى هذه الطرق الثلاث.

فتارة «يُوجز» وتارة «يُسهب» وتارة يأتي بالعبارة «بين بين».

ولا يعد الكلام في صورة من هذه الصور بليغًا، إلا إذا كان مطابقًا لمقتضى حال المخاطب، ويدعو إليه موطن الخطاب.

فإذا كان المقام للإطناب مثلًا، وعدلت عنه إلى الإيجاز أو المساواة، لم يكن كلامك بليغًا، وفي هذا الباب ثلاثة مباحث.

(١) المبحث الأول: في الإيجاز وأقسامه

الإيجاز: هو وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ أقل منها، وافية بالغرض المقصود، مع الإبانة والإفصاح، كقوله تعالى: ((خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْمعرْوفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ))، فهذه الآية القصيرة جمعت مكارم الأخلاق بأسرها.

وكقوله تعالى: ((أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ))، وكقوله «ص»: «إنما الأعمال بالنيات.»

فإذا لم تفِ العبارة بالغرض سُمي «إخلالًا وحذفًا رديئًا» كقول اليشكري:

والعيش خير في ظلا ل النَّوْك ممن عاش كدًّا

مراده: أن العيش الناعم الرَّغد في حال الحمق والجهل خير من العيش الشاق في حال العقل، لكن كلامه لا يعد صحيحًا مقبولًا.

وينقسم الإيجاز إلى قسمين: إيجاز قصر وإيجاز حذف.

ف «إيجاز القصر» (ويُسمى إيجاز البلاغة) يكون بتضمين المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة من غير حذف، كقوله تعالى: ((وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)).
فإن معناه كثير، ولفظه يسير؛ إذ المراد أن الإنسان إذا علم أنه متى قَتَلَ قُتِلَ امتنع عن القتل، وفي ذلك حياته وحياة غيره؛ لأن القتل أنفى للقتل، وبذلك تطول الأعمار، وتكثر الذرية، ويقبل كل واحد على ما يعود عليه بالنفع، ويتم النظام، ويكثر العمران.
فالقصاص: هو سبب ابتعاد الناس عن القتل، فهو الحافظ للحياة.
وهذا القسم مطمح نظر البلغاء، وبه تتفاوت أقدارهم، حتى إن بعضهم سُئل عن «البلاغة» فقال: هي «إيجاز القصر».
وقال أكثم بن صيفي خطيب العرب: «البلاغة الإيجاز.»
و«إيجار الحذف» يكون بحذف شيء من العبارة لا يخِلُّ بالفهم، عند وجود ما يدل على المحذوف من قرينة لفظية أو معنوية.

وذلك المحذوف إما أن يكون:

(١)حرفًا، كقوله تعالى: ((وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا)) أصله: ولم أكن.

(٢)أو اسمًا مضافًا، نحو: ((وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ)) أي: في سبيل الله.

(٣)أو اسمًا مضافًا إليه، نحو: ((وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ))أي: بعشر ليالٍ.

(٤)أو اسمًا موصوفًا، كقوله تعالى: ((وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا)) ؛ أي: عملًا صالحًا.

(٥)أو اسمًا صفة ، نحو: ف((زَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ))؛ أي: مضافًا إلى رجسهم.

(٦)أو شرطًا، نحو: ((فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ))؛ أي: فإن تتبعوني.

(٧)أو جواب شرط، نحو: ((وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ))؛ أي: لرأيت أمرًا فظيعًا.
(٨)أو مسندًا، نحو: ((وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ))؛ أي: خلقهن الله.
(٩)أو مسندًا إليه، كما في قول حاتم:

أماويُّ ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

أي: إذا حشرجت النفس يومًا.
(١٠)أو متعلقًا، نحو: ((لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ))؛ أي: عما يفعلون.
(١١)أو جملة، نحو: ((كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ))؛ أي: فاختلفوا فبعث.
(١٢)أو جملًا، كقوله تعالى: ((فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ)) أي: فأرسلوني إلى يوسف لأستعبره الرؤيا، فأرسلوه فأتاه، وقال له: يوسف أيها الصديق.
واعلم أن دواعي الإيجاز كثيرة: منها الاختصار، وتسهيل الحفظ، وتقريب الفهم، وضيق المقام، وإخفاء الأمر على غير السامع، والضجر والسآمة، وتحصيل المعنى الكثير باللفظ اليسير ... إلخ.